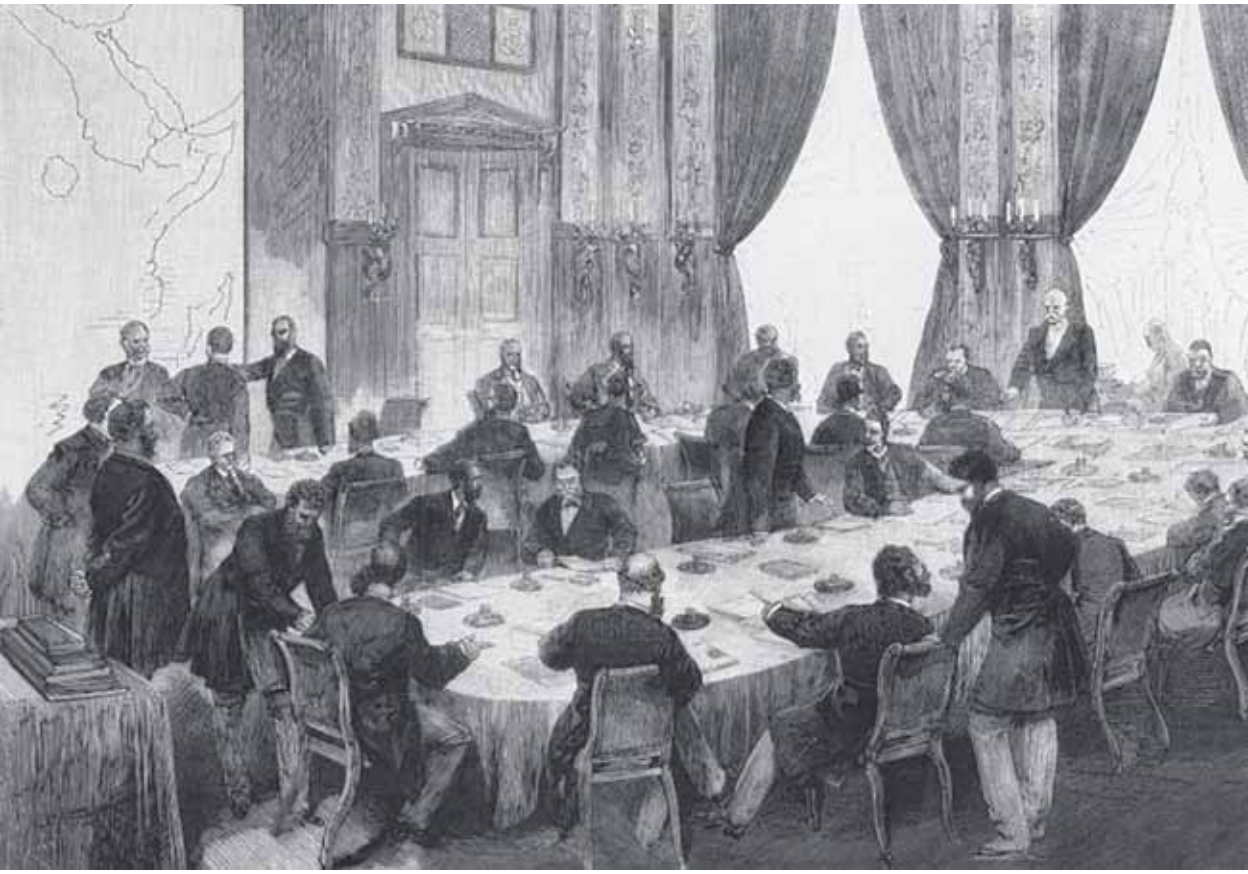

محو ذاكرة الأفارقة.. دور الاستعمار في تشويه الأسماء الجغرافية بإفريقيا

د. آدَمَ بَـمْبا
جامعة إفريقيا الإسلامية UMA، أبيدجان

هذه الورقة استقصاءٌ لثقافة تسمية الأمكنة العريقة بإفريقيا، أو ما يُعرف بالاسم الجغرافي، وهو الاسم الذي يُطلَق على المعالم الطبيعية والحضارية، من بحار، وجبال، وغابات، ومُدن، وطرقات، ويُطلق على العِلم الذي يُعنى بهذا المجال الجغرافي «طبونيميا».

وقد وقفت الورقة الحالية عند أهمية الاسم الجغرافي بما يقوم به من وظائف في الحفاظ على تراث المجتمع، وعلى تاريخه، وما يحقِّقه من قوة معنوية في بقاء المجتمع ووئامه واستمراريته، فلا وجود لأمة بلا أسماء جغرافية.

هنا؛ تنبع إشكالية هذه الورقة، وهي احتجاز القوى الاستعمارية للاسم الجغرافي بإفريقيا؛ بمحوه واستبداله بأسماء أوروبية، أو تحريف هجائه، وتلك عملية مُمَنْهجة كان الهدف منها الاستحواذ على الأرض، وقطع الأفارقة نفسيّاً عن أرضهم. هذا؛ وقد وقفت الورقة الحالية عند نماذج كثيرةٍ من التدخل الاستعماري في الاسم الجغرافي بإفريقيا: في أسماء البحار، وسلاسل الجبال، وأسماء الدول، وعواصمها، وشوارعها. كما وقفت عند بعض صُوَر التحريف الهجائيِّ والدِّلالي للاسم الجغرافي بإفريقيا، وأشارت الورقة إلى بعض جهود إعادة تسمية الأمكنة بإفريقيا في إطار حركات إزالة الكولونيالية. ولا تعدو الورقة الحالية أن تكون إلماحاً خاطفاً لموضوعٍ خطيرٍ متشعِّبٍ جديرٍ بأنْ تُخصص له الدراساتُ المعمقة.

مقدمات: الاسم الجغرافي رمزاً للهوية القومية:

إن مفهوم التسمية مفهومٌ وجوديٌّ؛ إذْ كل مخلوق لا بد له من اسم، سواءً كان المسمّى من الأحياء أم من غير الأحياء، من المحسوسات أم من غيرها، ويُعرف العِلمُ الذي يبحث حول الأسماء بـ«علم التسمية» Onomastics، وهو دراسة الأسماء وأصولها، ويشمل ذلك الأسماء البشرية، وأسماء الأمكنة، ثم يتفرع إلى دراسة أسماء الحيوانات، ومكوِّنات الكون[١].

إذاً؛ إن دراسة أسماء الأمكنة، أو الاسم الجغرافي Toponymy (طبونيميا)، هو فرعٌ من علم التسمية، وهو من أصلٍ يوناني مركبٌ من جزأين: topos أي: مكان، وonoma اسم[٢]. ويتفرع هذا المجال إلى مساقاتٍ متعدِّدة، كأسماء المستوطنات البشرية، والقرى، والمدن، والشوارع والبنايات، والمعالم الطبيعية، والأنهار، والجبال، والطرق والمسالك.

للتسمية ثقافة عريقةٌ بالمجتمعات الإفريقية، سواء كان ذلك تسمية الأشخاص، أم الأمكنة.

وتحرص الدراسات الطبونيمية على الإجابة عن أسئلة أساسية حول كلِّ اسم: ما أصله الاشتقاقي؟ وما دلالته؟ وأين موقعه؟ ومَن واضِعُ الاسم؟ ومتى وُضِع؟ ولماذا وُضِع؟ وتستدعي الإجابة عن تلك الأسئلة طُرُقاً بحثية ومجالات علمية شتى: جغرافية، وتاريخية، ولغوية ولسانية، وإثنوغرافية، وسياسية، واجتماعية، وغيرها[٣].

عليه؛ فإن تعدد مجالات البحث في الأسماء الجغرافية يدل على مركزيتها، وعلى تعدد وظائفها في الحياة الإنسانية، فهي تعبِّر عن وجود الأفراد والمجموعات وعن مصيرها؛ بارتباطها بمكانٍ معيّن، وهذا المكان- بدَوْره- لا يتحدد إلا باسمٍ

(١) Francesco P., & Francesco C., 2023. Place Names, Cambridge Unv. Press, p.1.

(٢) هيئة الموسوعة العربية، الموسوعة العربية، مجلد١٩، سوريا: هيئة الموسوعة العربية، ١٩٩٨م.

(٣) Tent, J. and D. Blair. 2014. Motivations for Naming: A Toponymic Typology. ANPS Technical Paper No.2.

معيّن يميّزه عن سائر الأمكنة، فالمكان هو الذي يُميِّز «الأنا» عن «الآخر»، ويُحقِّق «نقطة ارتكاز» للفرد والجماعة على وجه البسيطة، ينتسب إليها كل فرد ويُعرف بها.

أيضاً؛ فإن الأسماء الجغرافية مستودَعٌ أمين للمعارف الإثنية، يخزن فيها كل شعب الكثير من معارفها الجغرافية، وعناصرها الثقافية، وأحداثها التاريخية. على سبيل المثال: إن معرفة أصل اسم المكان واشتقاقه اللغوي قد تمدنا بمعلومات تاريخية مهمة حول قاطني المكان، وعن بعض ظروف حياتهم ولغتهم وحضارتهم. كما تعطينا إضاءات حول المجموعات والأعراق المختلفة التي استوطنت في مكانٍ مُعيّن؛ حيث تترك كل مجموعة آثاراً متمثلة في أسماء مواضع. إن هذا المعنى هو ما عبّر عنه الباحثان أونغ وبيرونو بلغة شاعرة بوصفهما أسماء الأمكنة بـ language fossils، أي: عظميات لغوية. ففي الأسماء الجغرافية من القوة الإيداعية للمعلومات التاريخية والعناصر الحضارية ما في العظميات التي يستعين بها الباحثون الأثريون والمؤرخون في استنطاق الماضي والكشف عن غوامضه[1].

بناءً على ذلك؛ فإن الاسم الجغرافي ينبغي أن يحظى بمصداقية كبيرة، وبموثوقية عالية في الأصالة والأمانة في حمل ما استُودِعَ من تراث حضاري للشعب صاحب الاسم والمكان، وإن أي مساس بالاسم الجغرافي عبثٌ بهوية الشعب، وخيانة للأمانة الحضارية المودَع في الأسماء التي تركها الشعب.

هنا بالذات؛ يتحدد الإشكال وعمقه في الورقة الحالية عند النظر في الاسم الجغرافي في ظل الحضور الاستعماري بإفريقيا، حيث إن الأصل فيه التشويه والتبديل والإلغاء؛ بإعطاء المستعمر نفسَه حقّاً إلهيّاً مطلقاً في تسمية المواقع الجغرافية، والأسماء العرقية، وإلغاء ما وجد منها مستعْمَلاً منذ قرون بجرّة قلم! وتحريف بعضها على هواه نطقاً وكتابةً، كل ذلك تعبيراً عن هيمنته على المكان الإفريقيّ وما فيه من بَشَر.

في هذا الإطار؛ فإن الورقة الحالية محاولةٌ لمناقشة الاسم الجغرافي عبْرَ ثلاثة محاور أساسية، هي:

أ- ثقافة تسمية الأمكنة ببعض المجتمعات الإفريقية.

ب- الاستعمار وتشويه الأسماء الجغرافية بإفريقيا.

ج- إعادة تسمية الأسماء الجغرافية بإفريقيا.. بوصفها وجهاً لإزالة آثار الكولونيالية Decolonization.

المحور الأول: ثقافة تسمية الأمكنة في التراث الخرائطي بإفريقيا:

للتسمية ثقافة عريقةٌ بالمجتمعات الإفريقية، سواءً كان ذلك تسمية الأشخاص، أم الأمكنة، أم المكوِّنات الأخرى في الكون، فلدى كل إثنية تقاليد موروثة في تسمية الأفراد، ويجمع بين الأفارقة قاطبةً رؤيتها العميقة حول الأسماء، وكما يقول الباحث مادوبويك فإن.. «الأسماء ليست مجرد شارةٍ يحملها الفرد، إن لها دلالات اجتماعية عميقة، وإن دراسة الأسماء لدى كل مجموعة إثنية تؤكّد احتواءها لرؤيا العالَم الخاصة بكلٍّ منها»[2]. ومن الرؤى المشتركة بإفريقيا حول الأسماء: الاعتقاد بأن للاسم قوة باطنة يمكن من خلالها التأثير في حامله إيجاباً وسلباً، وتنسحب هذه الرؤية على الحيوان والنبات والأمكنة؛ لأن كل شيء في الوجود

(١) Siphokazi R. & Abraham M. 2022. «A place called home: Understanding Toponyms», 58th ISOCARP, 3-6 Oct., p.1.

(٢) Madubuike, I. 1976. A Handbook of African Names, Three Continents Press, 13-14.

يحمل روحاً معيّنة.

فالاســـم والمســـمى عند معظم الأفارقة شيءٌ واحد، وآيـــةُ ذلك الألفاظ الدالة على الاســـم في بعـــض لغات إفريقيا، مثلاً: يُطلق على الاســـم عند أكانْ krodin، ويعنـــي حرفيّاً: اســـم الروح. وفي مجتمع زولو، وانْغوني، بجنوب إفريقيا: هو igama، ومعناه: رمز الإنســـان. وحين يموت الشـــخصُ فإن اسمه الصريح لا يُلْفظ به في معظم ثقافات إفريقيا؛ إشارةً إلى اختفاء الاسم مع البدن[١]. أيضاً؛ تكشف لنا بعض الأمثال بإفريقيا عن هذه الرؤية المشـــار إليهـــا، ففي مجتمـــع ILaje في نيجيريـــا، يقال: oruko mi ro nen, apeja mi ro nen، ويمكن ترجمته إلى: «كما يكونُ اسمُك تكُن»[٢].

بنـــاءً على مضى؛ فإن الاســـم الشـــخصي في المجتمعـــات الإفريقيـــة حمّـــال دلالات ومعارف كثيـــرة عن حامله، وهو كذلك نافذةٌ مُشْـــرَعة على المجموعة الإثنية، فقد يدل على رتبة حامل الاسم في الأســـرة، أو على عمره، أو على ظروف ولادته، أو علـــى واقعة تاريخية مُصاحِبـــةٍ لمولده، أو يُعبِّر عن رؤيا المجموعة الإثنية وعن بعض معتقداتها، أو حتى عن الآمال المباشرة للمجتمع أو الأسرة المراد تحقيقها من خلال حامل الاسم. لذلك؛ فإن تسمية المولود في كثيرٍ من مجتمعـــات إفريقيا التقليدية (باســـوتو مثلاً)، إنما هي مســـؤولية كبار السِّن في العشيرة[٣].

فمن تعبير الاســـم عن ظـــرفٍ مصاحبٍ لمولد صاحبه ما نجد عند إثنية Luo في الجنوب الغربي بكينيا، فالغالب فيها بدء أســـماء الذكور بصوت o، والإناث بـ a، ويشيع بينها ربط الاسم بزمن الولادة في ليلٍ أو نهار، أو بالموضـــع، فالمولود الذكر في الصباح يُدعـــى Onyango، والأنثى Anyango، وفـــي الظهيـــرة Ochieng/Achieng، وبالليل Otieno/ Atieno[٤]. وأســـماء أخـــرى لدى كلّ إثنيـــة تُعبِّر مثلاً عن ظرف اســـتثنائي معيّن، كفترة زمنية طبيعية من صيف وجفاف، ورياح موســـمية، أو مصالحة بين مجموعات... فالأســـماء من هذا القبيل، كمـــا نبه عليه الباحث لازيبو، هي وســـيلة عند كل مجموعة لتدويـــن تاريخها وتذكُّر أحداثها المهمة[٥].

أما تعبير الاســـم عن رُتبة حامله بين أشقائه، بمجتمـــع «أكانْ» مثلاً، فمنهـــا إطلاق Piesie على المولود الأول، وبعده: Manu, M□nsa, Anane على التوالي، فالمسمى مثلاً Koffi Anane يعني: أنه هو المولود الرابع، وأنه ذكر، ومولدُه يوم جمعة[٦].

وعند هَوْســـا يُطلَقُ Auta/dan Tsofuwa على المولـــود الذكر الأخيـــر، وYar Tsofuwa علـــى الأنثى. أما الطِّفلُ وحيدُ أمِّه أو أبوَيْه؛ فيدعى Muderwa/Wepukhulu عنـــد مجموعـــة باســـيغُو فـــي كينيا[٧]. فالاســـم الشـــخصي في المجتمعات الإفريقية هو بمثابة بطاقة هوية تحوي معلوماتٍ اجتماعية وافرة حول الفرد.

باختصار؛ فإن الوظائف التي يقوم بها الاســـم الشـــخصي في حمل حقائق ومعلومات دقيقة حول حامله، في المجتمع التقليدي بإفريقيا، هي الوظائفُ

(١) Fitzptick, Liseli A. 2012. African Names and Naming Practices, MA thesis. Ohio Unv. p.26.

(٢) Agyekum, Kofi. 2006. The sociolinguistics of Akan personal names. Nordic J., 15(2): p.206–235 (208).

(٣) Guma, Mthobeli. The cultural meaning of names among Basotho of Southern Africa, p.267.

(٤) Dorson Richard. 1979. African Folklore, Indiana Unv., p.579.

(٥) Alfred, Ladzekpo. 2001, p.4.

(٦) Dorson, African Folklore, p.577.

(٧) Jean-Luis Siran. Names and Proverbs among the Vute (Cameroon): Significance, meaning and value, p.208.

نفســـها التي تجسِّدها أسماء الأمكنة عن أصحابها وعن البيئة نفسها. وقد وُجِدت بالمجتمعات الإفريقية القديمة- مثل ســـائر المجتمعات التقليدية- ثقافةٌ غنية بأســـماء الأمكنة، تنتقل شفاهةً عبر الأشكال التعبيرية وعبـــر الطقوس اليومية من أعمال صيد، وزراعة، ورقصات طقوسية، وأغانٍ، وضرب أمثال، وسرد تواريخ أجداد، ورواية هجرات مجموعات...، وهو ما يُطلق عليه في ســـياق المجتمعات التقليدية الخرائطية الإثنوغرافية Indigenous/ethno-Cartography.

نتيجةً لذلك؛ وُجِد فـــي المجتمعات التقليدية أفرادٌ هم بمثابة موسوعة خرائطية متنقِّلة؛ بمعرفتهم الواسعة بالمواقع وبأسمائها ومعانيها وتضاريسها، ويُســـتعان بأولئك في السِّلم والحرب، وفي التحديد الدقيـــق لمواقع بعض النباتات لأغراضٍ طبية، وفي معرفة تنقـــلات الحيوانات، وفـــي الزراعات، وفي الرعي، وفي فـــضّ النزاعات حول حيازة الأراضي، وفي معرفة تواريـــخ المجموعات وهجراتها، وكثيراً ما اعتمد المستكشـــفون الأوروبيـــون، والباحثون الأنثروبولوجيـــون، والإدارات الاســـتعمارية، علـــى أمثال أولئك المحليّين في الحصول على المعلومات الجغرافية والإثنوغرافيـــة الضرورية لهم في إدارة الأراضي الجديدة التي وفدوا إليها.

أما عن صُوَر تسمية الأمكنة؛ فإنها تقريباً تتبع الأشكال المتبعة في الاسم الشخصي، ومنها على سبيل المثال:

❖ التسمية بالإشارة إلى معتقدات خاصة:

مثـــلاً؛ يُطلق ماســـاي على جبلٍ بركاني اســـم Oldoinyio Lenga، أي: جبل الإله؛ اعتقاداً منهم أن الإله ســـاكنٌ في هذا المكان، وأنه يُصدر أصواتاً مرعبة، وينفثُ النار والدخان[١].

❖ الإشارة إلى أحداث تاريخية:

يســـجِّل مثل هذا النوع من الاســـم الذكريات والأحداث المتعلقة بالمكان، وبخاصةٍ نشأته.

❖ الإشارة إلى صفات القاطنين وطبيعتهم، أو إلى ظروف خاصة بهم:

عادةً؛ هي أســـماء يُطلقُها الآخـــرون على المكان إذا عُـــرِف أصحابه بصفـــةٍ معيّنة، كمهنـــة أو صفة خُلقية، وهي عادةً تعبيراتٌ ســـاخرة فكاهية، منها مثلاً Karamajong، لبلدة في يوغنـــدا، ومعناه: العجائز القاعـــدون، وأُطلق على الحماليـــن الذين عجزوا في التجـــارات البعيدة عن مواصلة الســـير، فأقاموا بهذا المكان واســـتقروا به[٢]. وبعاصمة مالي حيٌّ شـــعبيٌّ sabali-bugu: حي الصبر، ويشـــير إلى خلافٍ عند تأسيس هذا الحيِّ بين فريقَين والتَزَمَ أحدُهما بالصبر.

❖ الإشارة إلى صفة المكان (أسماء وصفية) كتضاريس المكان، وحجمه:

مثلاً؛ نجـــد بمنطقة جبلية، غربي كوت ديفوار، أن أســـماء كثيرٍ من القرى والمدن تنتهي باللاحقة gouin، أي: قمّة، مرتفع؛ إشارةً إلى موقع القرية، وأســـماء أخرى تنتهي بـ gue، وتشـــير إلى منطقة بطحاء مفروشة ببساطٍ صخري[٣].

❖ الإشارة إلى منطقة نباتية، أو إلى الحياة البرية، أو غير ذلك:

مثـــلاً؛ فـــي كينيـــا ســـهلٌ ممتـــدٌّ يُســـمّى Nooloitikoishi، أي: مرتـــع الحمر الوحشـــية؛ لكن هذا المكان الآن قد خلا من هذا الحيوان بفعل الصيد، فالاسم هنا قد قام بمهمة تدوين التاريخ[٤].

(١) Naomi Kipury, Place names of Maasai Origin, p.47.

(٢) D. Roden. «Some Geographical Implications from hte Study of Ugandan Place-names», (EAGR. No.12, p77-86(83.

(٣) Gogbeu Mamadou. 2004. l'Onomastique Dan, Principe d'Identite et d'identification, Unv de Bouake, p.285.

(٤) Naomi, Place name of Masai Origin, p.47.

هـــذا؛ ويمكن القولُ إن هذا النظام المتشـــعِّب في تســـمية الأمكنة بمجتمعات إفريقيا لَهُو نتيجةٌ طبيعيـــة لتعلّق الأفارقة بالأرض، فـــلا وجود لفردٍ خـــارج مجموعةٍ ينتمي إليهـــا، ولا وجود لمجموعة خـــارج أرضٍ تنتمي إليها؛ لذلـــك نجد لدى بعض المجموعات الإثنية اشـــتقاق أســـمائها من أسماء جغرافية. من أولئك مثـــلاً: مجموعة Dan غربي كوت ديفوار، ولديها نظامٌ دقيقٌ في تسمية العشائر؛ بإشـــارة الاســـم إلى موطن الشـــخص، فالاســـم Manminnu يشـــير إلى أن كل مـــن يحمل هذا الاسم هو من بلدة «مانْ» وما حَوالَيها[١].

ولعل الإدريســـي (ت٥٦٠هـــ/١١٦٦م) قد نبّه عَرَضـــاً على هذا الملْمَـــح بالمجتمعات الإفريقية، حين تعرّض لألقاب الملوك بالشـــرق من صينيِّين، وتُرك، وخزر، وروم، وفُرس، فذكر أن لكلّ واحدٍ من أولئك ألقاباً مَلكيّة «يتوارثه مُلوكهم بينهم؛ لا ينتقلون عنه»، ثم قال: «أما الســـودان فإنما تُنْســـب مُلوكُهَا إلى بلادها، فاسْمُ صاحب غانة: غانَة، ومَلِك كوغة اسمه: كوغة»[٢].

لهـــذا؛ فإن تدخُّل القوى الاســـتعمارية الغربية في التقاليد الخرائطية للشـــعوب الإفريقية؛ بوضع أسماء جديدة للمواضع، وبالتحريف المتعمد لبعض الأسماء، قد أزعج بشدة تلك التقاليد بتجريدها من معانيها، وإفراغها من محتواها الثقافي ومن قيمتها اللغوية، ومـــن حمولتها التاريخيـــة، وغير ذلك من المحدِّدات الكثيرة التي يحتويها الاسم الجغرافي.

المحور الثاني: الاستعمار وتشويه الأسماء الجغرافية بإفريقيا:

وظّف المستعمر الأســـماء الجغرافية بإفريقيا توظيفاً مباشـــراً لتحقيق الهدف الأساس للمشروع الاستعماري، وهو الاستحواذ على الأرض. كان أول إجراءٍ لهذا التوظيف الهادف للأســـماء الجغرافية إعطاءُ المستعمر لنفسه «حق التسمية» the right to give a name بتعبيـــر الباحـــث كالْفيـــتْ[٣]؛ فأسْقَط على المكان الإفريقي ما شاء من الأسماء، وتصرّف فيها على هواه، وهي عملية سمّاها الباحث ماناشا بـ«مَحْو» onomastic erasure؛ بقوله إن الاســـتعمار «قد اجتهَد في محو هويات الشـــعوب المغلوبة والمُســـتعْمَرَة بطرق شتى، وذلك بتخلص المســـتعمِرين من الأســـماء الأصليـــة للعديد من الأمكنة والشوارع، واســـتبدالهم إياها بأخرى تُمثِّل هويتهم هم، وثقافتهم، وأيديولوجيتهم»[٤].

هنـــا؛ نجد للباحثيـــن في الطبونيميـــا منهجاً يُعـــرف بـ«المنهج الطبونيمي النقـــدي» Critical Toponymic Theory، ويوظـــف للكشـــف عن الســـياق السياســـي، وصراع القوى حـــول الأمكنة وتســـميتها[٥]. وفيه وجد الباحثون أن عملية المحو الـمُمَنْهج قد سبقت الهجمة الاستعمارية العسكرية، وذلـــك علـــى أيـــدي الرحالـــة والأنثروبولوجيِّين والمستكشفين، ورجال الدين القساوسة الأوروبيين، فقد حقـــق أولئك- فيما حققوا- الدعم النفســـي للمســـتعمر للإقدام على الهجمة؛ لأن إعطاء اسم مألوف لموقع غير مألوف؛ يعطي الإنســـان هيمنةً نفسية على ذلك المكان[٦].

على ســـبيل المثال: عمد المستكشـــفون إلى المعالـــم الجغرافية المهمة بإفريقيـــا من بُحيرات

---

(١) Gogbeu, l'Onomastique Dan, Op. Cit., p.286.

(٢) الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٢٠، ص١٣٢.

(٣) Olaiyi Yai, «African ethnonym», L.L. Calvet, p.43.

(٤) Petrus, «renaming of places in Namibia», Op. Cit., p.72.

(٥) Themba, Moyo. 2012. «Naming practices in colonial and post-colonial Malawi», Inkanyiso, vol4(1), p.21.

(٦) Oliver Nyambi, «Names in space», 261.

وجبال فنسبوها إلى أوروبا، فالرحالة جون هاننج سبيك (John Hanning Speke , ١٨٢٧-١٨٦٤) الذي «اكتشف» أكبر بحيرةٍ في إفريقيا (عام ١٨٥٨م)، أثناء بحثه عن منبع نهر النيل، أهدى تلك البحيرة لملكة بريطانيا فيكتوريا (ح.١٨٣٧-١٩٠١م)، وأطلق اسمها على البحيرة Victoria Lake، وكأنه هو مالكُها صاحب حقِّ التصرف فيها.

بالمثل؛ فإن زميله دافيد ليفنغستونْ (David Livingstone , ١٨١٣-١٨٧٣) أطلق اسم الملكة على أعظم شلالات بالمنطقة، وهي التي تمتد بين زيمبابوي وزامبيا، مع أنه قد سجل أن مرشديه المحليّين قد ذكروا له الاسم المحلي للشلالات Ukerewe، وأن لها أكثر من اسم بلغات شرق إفريقيا، ومعظمُها تصف الشلالات بالمياه الراعدة Syungu Namutitima. تجدر الإشارة هنا إلى أن الجغرافيين المسلمين، والإدريسي (محمد بن محمد، ت٥٦٠هـ/١١٦٤م) خاصةً، قد سبق بذكر هذه البحيرة ورَسَمَها بدقة كبيرة، وصرح بأنها هي منبع نهر النيل، وذلك قبل مولد «المستكشفين» بسبعة قرون[١].

بعد مهمة «المستكشفين»، وقيام الهجمة الاستعمارية، وتقسيم إفريقيا بين المستعمِرين، نسب كلُّ فريقٍ الجزء الذي استولى عليه إلى نفسه: «إفريقيا الغربية الفرنسية» و«إفريقيا الاستوائية الفرنسية»، و«شرق إفريقيا البريطانية»، و«شرق إفريقيا الإيطالية»، و«شرق إفريقيا البرتغالية» (=موزامبيق)، و«جنوب غرب إفريقيا الألمانية» (=ناميبيا)،... وتوّجوا ذلك بإطلاق أسماء مواقع أو مدن أوروبية على مواقع إفريقية، وقد وجدت الباحثة ويبرٌ أن إيطاليا كانت أكثر استخداماً لهذا النوع من التسمية بمستعمرة إثيوبيا[٢].

أيضاً؛ من الأهداف الاستعمارية الجوهرية لتشويه الأسماء المحلية أو محوها: إضعافُ الرباط النفسي بين جيل الاستعمار وبين أرضه؛ لأن تسمية المكان وسيلةٌ أساسية لبناء المكان نفسه؛ إذ بواسطتها يعطي الناسُ معنًى للمكان، وما دام هذا المعنى معدوماً، فالمكان يُعَدّ مكاناً ميتاً، ولعل من الشواهد القريبة في روديسيا (زيمبابوي): مَنْع السلطة الاستعمارية إطلاق أسماء ذات صبغة قومية سياسية على الأمكنة، كالأبطال القوميّين المناضلين ضد الاستعمار؛ ذلك لطمس المعالم والرموز القومية التي تُشعر الشعوب المستعْمَرة بعزة النفس وبالرغبة في الخروج عن ربقة الاستعمار[٣].

هذا؛ ويمكن حصر تشويه الاسم الجغرافي بإفريقيا في مستويين عامَّين، هما: وضع اسم جديد للمكان، وتبنِّي الاسم القديم مع تحريفه.

المستوى الأول: وضع أسماء جديدة:

كانت القاعدة الأساسية لدى القوى الاستعمارية كافة، وضعُ أسماء جديدة للمواقع الجغرافية في كل مستعمرة؛ لأن ذلك كان يعضد سيادة صاحب الاسم وأحقيته دون غيره في سباق التكالب على إفريقيا؛ لذلك كان قرار تسمية الأمكنة يصدر من الإدارة الاستعمارية المركزية في العواصم الأوروبية.

ويمكن تتبع حركة تسمية الأمكنة في مجال أسماء الدول الإفريقية الحديثة، ومدنها الكبرى، سواءً ما كان منها قديماً أم ما نشأ أثناء الحقبة الاستعمارية.

١- أسماء الدول القطرية الحديثة:

إن سياسة «المَحْو» المشار إليها آنفاً كان لها التأثير العميق في أسماء الدول الإفريقية الحديثة ومدُنها الرئيسة من حيث أصل وضعها وطريقة

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (٣٢/١).

(٢) Brigitte W. 2019. The Linguistic Heritage of Colonial Practice, p.74.

(٣) Mamvura, Z. 2020. «Let us make Zimbabwe in my own name» J. South Af. 40(1), 32-39, p.47.

كتابتها، ويُلحظُ ذلك من أول وهلةٍ، في غرابة أسماء الدول والمعالم الجغرافية بالقارة بكونها في الغالب أجنبية[1].

مثـلاً: لا نكاد نجـد بيـن دُوَل إفريقيا جنوب الصحراء، البالغة (٤٦)، إلا خمسـة أسماء أصلية أقـرب إلى السـلامة نُطقاً وهجـاءً، وهي: (غانا، ومالي، وملاوي، وبوركينافاسو، وإسّواتيني)، والسِّر في سـلامة تلك الأسـماء أنها جميعاً مِـنْ وَضْع الأفارقة أنفُسِـهم؛ بدلاً عن الأسـماء الاستعمارية المحرفة.

أما ما عدا الأسـماء المذكـورة فهي من وضع الاسـتعمار، وإنْ كانت بعض الـدول قد لجأت بعد اسـتقلالها إلى تعديل اسمها؛ لكن التشويه لا يزال متلبِّساً بالأسماء بصورةٍ أو بأخرى، كما أن مجموعةً من الدول لم تزل محتفظةً بالاسم الاستعماري كما هو، منها: (كوت ديفوار، وكاميرون، وجمهورية وسط إفريقيا، وسـيراليون، وليبيريا، وجنـوب إفريقيا، وإفريقيا الاستوائية). هذا على الرغم من أن بعض تلك الأسماء تذكِّرُ بالفترة الاستعمارية بالإشارة إلى نهب ثروات القارة، مثلاً: اسم «كوت ديفوار» (ساحل العاج) يشير إلى القضاء على الفِيَلة من أجل أنيابها، و«ساحل الذهب» كان اسـماً قديماً لغانا، و«ساحل العبيد» في غرب إفريقيا، وبعض الأسـماء ضعيفة المعنى تشـير إلى الجهة فحسـب، مثل «جمهورية وسـط إفريقيا»، كما أن تسمية «غينيا الاستوائية» فيها شيءٌ من الغموض، فهي ليست تماماً على خط الاستواء، ولا يوجد سببٌ واضحٌ لتسميتها بـ«غينيا»، فالعادة أنْ تشـترك دوْلَتان متجاوِرَتان في الاسـم ثم يُشـار إلى كلٍّ منهما بصفة خاصة، مثل: «غينيا كوناكري»، و«غينيا بيسـاوْ»، أما «غينيا الاستوائية» فبينها وبين الأُخرَيَين ثماني دُوَل.

وبعد؛ فإن طبيعة تسمية بعض الدول وظروفها تدعـو للتأمل، مثـلاً: كانت روديسـيا تُطلَقُ على زيمبابوي، وزامْبيا، وهو اسـم المسـتعمر (Cecil John Rhodes , ١٨٥٣-١٩٠٢)، ولا فضـلَ له في شـيءٍ فـي تاريخ تلك البلاد سـوى هجمته عليها ونهبها. ويمكن اعتبار اسـم نيجيريا من هذا القبيل، فهو- على الرغم من كونه مشـتقّاً من نهر النيجـر- لم يختره أهل البلاد، وإنما هو من اختيار السـيدة «لوغارد» زوجة «فريدريكْ لوغاردْ» الحاكم الاستعماري البريطاني في نيجيريا آنذاك.

٢- أسماء عواصم الدول الحديثة ومدنها:

حين جاء الاستعمار إلى إفريقيا؛ فإنه قد وجد حواضر قديمة وُجدت وازدهـرت منذ قرونٍ عدة، منها: (تمبكتو، وإيكو (لاغوس)، ومقديشـو، وكانو، وكونغـو...)، وبمـا أن بعض تلـك الحواضر كانت داخلية ليسـت على شـواطئ المحيط؛ فإن مدناً جديدةً قد نشأت بفعل الحركة الاستعمارية، وأخرى نشأت في مواقع إستراتيجية للمستعمِر في أعماق القارة.

هنا؛ نجد أن معظم المدن والعواصم الإفريقية قد استُبدلتْ أسماؤها القديمة بأسماء استعمارية، أو حُرِّفت تحريفاً يُبعدها كثيراً عن الأصل، وأن وضع الأسماء الجديدة أو اسـتبدالها، كان خطوةً واعية مرسـومة. غير أن المناطـق الإفريقية قد تفاوتت في تصاعُد عملية المحو، فبينما اتخذت سياسـةُ تسـمية الأمكنة منعطفاً سياسـيّاً خطيراً بمنطقة جنوب إفريقيا، وذلك لعلاقة التسمية بتأكيد أحقية المستوطنين في حيازة الأراضي، نجدها قد هدأت في المستعمرات البريطانية في غرب إفريقيا؛ لاتِّباع بريطانيا سياسـة الحكم غير المباشـر، وبالعكس ارتفعت في المستعمرات الفرنسية؛ لاتِّباعها سياسة الاحتواء assimilation.

ومـن الدول التـي كثُرت فيها أسـماء المدن الاستعمارية: كونغو الديمقراطية، ومنها:

(١) UNESCO. Olabiyi Yai, «African ethnonymy and toponymy», p.40.

Leopoldville(العاصمة)–Coquilhatville – (شمال) Stanleyville , Ponthierville – (وسط) Port Fancqui , Luluabourg Albertville , Baudoinvill , Jadotville , Elizabethville.

ومعظم المدن الرئيسة في غابون هي فرنسية، مثل Libreville العاصمة، و Port Gentil العاصمة الاقتصادية، و Lastoursville العاصمة الإقليمية، و Franceville. ومن الدول الأقل في عدد الأسماء الاستعمارية بوروندي و رواندا[١].

أما عن أسماء المدن المُستبدَلة أو المُحرَّفة؛ فلا يكاد يسلَمُ منه اسمٌ، فمدينة لاغوس– مثلاً– تُعرف محليّاً بـ Eko/Oko، بل إن بعض متحدِّثي يوربا من سكان المدينة لا يكادون يعرفون «لاغوس»، وقد وقع هذا التغيير على أيدي البرتغاليين عام ١٣٧٢م[٢]، ومعناه: بُحيرة Rio de Lagos، وتلك تسميةٌ أبعدت الحمولة التاريخية للاسم الأصل الذي يعني بلغة يوربا: معسكر جنود، أو مزرعة[٣].

٣- أسماء الشوارع والمعالم الحضرية Odonyms:

كانت تسمية الشوارع الرئيسة والأحياء والمنشآت المعمارية داخل المدن الإفريقية مجالاً رحباً لإظهار الهيمنة الاستعمارية، فأسماء الشوارع كما يصفها الباحث كومّبي هي: «درسٌ في التاريخ يتعلمه بيُسر مَن لا يملك وقتاً كافياً»[٤]، وهكذا فإن التسمية الجغرافية بالمدينة الإفريقية فُسَيْفساء من التاريخ الاستعماري، في أسماء شوارعها، وجسورها، وميادينها العامة، وعمائرها الحكومية، ومراكزها التجارية، ومدارسها العليا، ومستشفياتها.

هنا؛ وُجِد أن فرنسا كانت أحرَصَ المستعمرين على الإكثار من بثِّ تاريخها في أسماء المدن الإفريقية، ففي قرارٍ إداريٍّ مثلاً برقم (٩٨)، من باريس بتاريخ ٢٤ سبتمبر (١٩٢١م)، صدر الأمر بتغيير وتسمية مجموع (٥٨) شارعاً بمدينة لومي (توغو)، وجميعها رموزٌ فرنسية من قادة عسكريّين، ومواضع فرنسية، وأحداث تاريخية[٥].

أيضاً، في دراسة لأسماء الشوارع لتسع عواصم من المستعمرات الفرنسية بغرب إفريقيا في الخمسينيات، ومجموعها (٣٣٦)[٦]، وُجد أن نسبة (٧٦,٢٪) منها تشير مباشرةً إلى فرنسا: الثورة الفرنسية، ورجالات الفكر والسياسة والعسكرية، والأدب، وانتصارات فرنسا الحربية، مثلاً:

Avenue de Bir-Hakeim في أبيدجان، وكوناكري، وبوبوجولاسو، Avenue Louis Faidherbe, J. Gallieni, L. Binger, Rene Caillie, William Ponty, J. Clozel, Ernest Roume, Francois Blanchot.

فلا غرابَةَ أن يتكرر الاسم الأول في ثلاث دُوَل؛ لأنه تذكيرٌ بمعركة «بئر حكيم» في صحراء ليبيا (يونيو ١٩٤٢م)، بين الحلفاء والقوات الألمانية الإيطالية، والبقية لرموز الاستعمار الفرنسيّ بإفريقيا.

هذا؛ وفي خضمّ التسمية الطاغية برموز الاستعمار الفرنسي؛ فإن الإشارة إلى بعض الشخصيات الإفريقية التي خدمت الاستعمار نادرة،

(١) Michel Simeu-Kamdem, David K. 2016. «Some Features of Urban Place Names in Central Africa», p.3.

(٢) Mawere M. and Tapuwa R, (ed). 2016. Colonial Heritage, Memory and Sustainability in Africa, Language Research. Windhoek, Namibia, p.93.

(٣) Liora, Bigon. 2016. Place Names in Africa, Springer, p.70.

(٤) Liora, Op. Cit., p.198.

(٥) Frederic Giraut. 2012. Toponymy of Power: Trends in Toponymy, p.9-13.

(٦) Liora B., Place Names, p.97.

منهم:

Avenue du Moro Naba فـي وغادوغو Av. de l›Almamy Bali Siaka (كوناكـري)- Av. Blaise Diagne, Rue Galandou Diouf (دكار).

وليسـت مصادفةً أن يُطلق أسماء أولئك على شوارع مغمورة.

ولا أدل على وعي المسـتعمرين بأهمية تسمية الشـوارع ومعالم المدُن من قيام فرنسا، بعد إجلاء القـوى الألمانيـة من توغو وكاميـرون في أعقاب الحـرب «العالميـة»، إلـى تغيير جميع الأسـماء والرموز الألمانية، مثل: شوارع Kayser Strasse, Bismark Strasse, Adjalle، اسـتُبدلت بمثل: شـارع الجمهورية، وشارع ديغول، وشـارع ألْزاسّ لوران، وشارع النصر، وشارع الحلفاء.

٤- مدينة «دكار» أنموذجاً لتسمية الشوارع:

تمثِّل مدينة «دكار» أنموذجاً لتأثير الاسـتعمار العميق في التسـمية الجغرافية؛ فهي وغيرها من الحواضر الاسـتعمارية بغرب إفريقيا، قد خُطِّطَت وبُنِيـت على أسـاس «مركزية أوروبيـة» Euro-centrism كما تقول الباحثة ليورا[١]. كان تخطيط «دكار» عام (١٨٥٧م) على يد الحاكم الاسـتعماري بروتيـتْ (Leopold Protet, ١٨٠٨-١٨٦٢)؛ لتكون عتبر مركز الإدارة الاسـتعمارية الفرنسـية بغرب إفريقيا، واسـتُنفِدت جهودٌ جبارة لتُبرز هذه المدينة كل ما في فرنسا من كبرياء وعظَمة وهيمنة: في معمارية بيوتها، والنُّصب التذكارية في طرقاتها وساحاتها، وفي أسماء شـوارعها وأحيائها. أيضاً؛ أن تكون هذه المدينة أداةً مباشـرةً لتحقيق مشروع «الاحتـواء» assimilation، الـذي كان محـور النشاط الاستعماري الفرنسي.

مثلاً؛ نجد في دراسـةٍ حديثة لإحصاء أكثر من مائة اسم للشـوارع في دكار؛ أن كلها تقريباً أسماء شـخصيّاتٍ فرنسية من فلاسـفة، وأدباء، وحكام، وقـادة عسـكريين...، وقد وُضِعت تلك الأسـماء جميعها تحت الحاكم الفرنسي بالسنغال (Pinet-Laprade, ١٨٢٢-١٨٦٩)[٢].

أما في الحالات النادرة التي يُختارُ فيها اسـمٌ محليٌّ لشـارع؛ فإن ذلك ليس صدفة، وإنما يشـير ضمناً إلى الهيمنة الاستعمارية، وتلك حالُ الأسماء المحليـة الثلاثة بين (٣٨) من أسـماء الشـوارع الرئيسة بدكار، وهي:

Rue de Kaolak, Rue de Dialmath, Rue de Medine

ففي هذه الأسـماء تذكيرٌ بانتصارات فرنسـا العسـكرية في تلك البقاع على الحركات الشـعبية لمقاومة الاستعمار[٣].

بالإضافة إلى ذلك؛ فإن بعض أسـماء الشوارع هي اسـتفزازية جارحة للمشاعر الإنسانية، تهدف لتحطيم النفسية الإفريقية، على سبيل المثال: في ديسـمبر (١٩٤٤م)، أوقعت القوى الفرنسية مجزرةً بمجندين من «الرماة السـنغاليين» Tirailleurs Senegalais الذين كانـوا يطالبون برواتبهم، وقع ذلك فـي موضع قريب من مدينـة دكار؛ فأطلقت عليه فرنسـا شـارع الملازم ليمّوان[٤] Rue du lieutenant Lemoine.

مما سـبق؛ يتجلى أن تسـمية المواضع كانت إسـتراتيجية واعية لدى المسـتعمر؛ لطبع بصمته على إفريقيـا، ومحو هوية الأفارقـة عن أرضهم،

(١) Liora Bigon, French Colonial Dakar, p.97.

(٢) Krzysztof Gorny. 2003. Reconsidering Colonial Heritage in West African Cities, Routledge, p.167-172.

(٣) Liora Bigon, French Colonial Dakar, p.101.

(٤) GEO, Sйnйgal : pour la «dignitй nationale», Ziguinchor rebaptise des rues aux noms franзais, 21/02/2022.

وقطع علاقتهم بها، وتمثل ذلك في وضع المُستعمِر أسماء جديدة للمواقع الجغرافية وللدول الإفريقية الحديثة ومدنها، ومعالمها المعمارية من شوارع وميادين عامة.

المستوى الثاني: تحريف الأسماء الأصلية:

لم يكن بوُسع المُستعمِر وضع أسماء جديدة لكل بقعةٍ بإفريقيا، بل لم يكن ذلك ضرورياً له لتحقيق هيمنته على القارة؛ لذلك فإن الوجه الآخر لتشويه الأسماء الإفريقية تمثل في تحريف هجائها وكتابتها على المزاج الأوروبي في الإملاء، وقد أدى ذلك إلى إبعاد كلّ اسم عن أصله نُطقاً ومعنًى، قد يصل أحياناً لحدٍّ التغايُر التام بين المعنى الأصلي والمعنى الغريب المفتَعَل.

١- تحريف هجائي:

لم يكد اسمٌ شخصيٌّ أو جغرافي يسلم من التحريف الهجائي على أيدي المستعمرين، وهذا التحريف- في حدّ ذاته- طبيعيٌّ يحدثُ لأسبابٍ كثيرةٍ عند تعامُل الفرد مع لغةٍ وثقافة غير ثقافته (يأتي ذكرها). غير أن الغالب على المستعمرين تعمُّدهم التحريف، وذلك بناءً على أيديولوجية «المركزية الأوروبية»، و«حق التسمية» المشار إليه سابقاً، فكل اسم يزعج الأذن الأوروبية كان يُستَبدل. ففي ناميبيا مثلاً: أوصت لجنة مكلفة في الإدارة الاستعمارية بألمانيا (عام ١٩٠٩م) بتغيير ما يصعب على الألمان هجاؤه من الأسماء الأصلية، وقد عدّد الباحثُ كريستل الكثير من تلك الأسماء الاستعمارية بناميبيا، ووجد أن تغيير الأسماء من لغة ناما، وهيريرو Otjiherero لله Nama إلى الألمانية كان أعمق وأشمل[١].

من الأمثلة: يصعُب عقدُ علاقة بين Mozambique، وبين «موسى بن امْبيقْ»، أو موسى بن الملك» الذي يغلب الظن أن «موزامبيق» تحريفٌ لاسمه، وكان زعيماً وتاجراً كبيراً في القرن السادس عشر الميلادي قبل الحضور البرتغالي إلى الموضع. كما يصعُب الربطُ بين «صَنهاجة» بوصفه أصلاً للاسم Senegal، كذلك القول إن Dakar من الأصل deuk raw, ndakaru، أي: دار السلام[٢]. وأقل تحريفاً من ذلك Bamako عاصمة مالي، هو من الأصل Bamba-ko، أي: نهر التماسيح. وعاصمة كاميرون «ياوُنْدي» هو تحريف لـ Ewondo, Yewondo اسم مجموعة إثنية، حُرِّف بالألمانية إلى Jaunde، ومن ثَمّ إلى الفرنسية Yaounde، وجمهورية Kenya مُحرفٌ من Kere-Nyaga: الجبل الأبيض، من لغة كيكويو.

من صُوَر تشويه أسماء المواضع أيضاً، تعدد هجائها؛ حيث كان كل قوة استعمارية أو فرد من المستعمرين يسجِّلها على هواه، وشمل ذلك أيضاً أسماء الأشخاص والمجموعات، مثل:

- **هَوْسا:**

Hausa, Wawsa - Haoussa, Ussa, Auca, Hauca.

- **أسانْتي:**

Ashantee, Asante, Ashanti, Achanti, Asahnti (Fr) , Axante, Achanti.

- **وَغَدُ:**

Wagadu, Wagadugu,

(١) Petrus A. M. 2019. «Renaming of places in Namibia», JNS, 25, p.71-99 (72).

(٢) Samba Gadjigo. 2010. Ousman Sembene: The Making of a Militant Artist, p.49-50.

Ouagadougou (fr) , Uagadugu.

ولا يخفى أن بعض تلك الهجاءات بعيدةٌ عن الأصل.

منها أيضـــاً إضافة المســـتعمرين اللاحقة اليونانيـــة (a, ...ia...) إلـــى أســـماء الدول الحديثة، وهي تضاف للإشـــارة إلى النّسبة، أو للأسماء المجردة، مثل:

Asia, America, Gambia, Tanzania.

ومثلهـــا إضافةُ اللاحقـــة land أي: أرض، أو بلاد، إلى كثيرٍ من الأســـماء الإفريقية، مثل: سوازيلانْد، ونياسالانْد، وبيشْـــوالاند... فعادةً يكون الجزء الأول إشـــارةً إلـــى مجموعة إثنية غالبة. وهذا التقليدُ في التســـمية مُسْتنسَخٌ من أوروبا، مثـــلاً: Eng-land, Dutch-land، وهـــو غريبٌ على الثقافة الإفريقية؛ إذْ لم توجد بها مجموعةٌ إثنية غالبةٌ نسبت مملكة إلى نفسها دون غيرها؛ لذلك وجدنا الدول تتخلص من هذا التركيب؛ رغبةً في الوئام الوطني.

منهـــا مثلاً: مملكـــة Swaziland، هو في الأصل اسم الملك Mswati الثاني الذي حكم (١٨٤٠-١٨٦٨م)، وكان مغواراً، نجح في توحيد مجموعـــات Nguni، وأصبح الناس يشـــيرون إليهـــم بـــ bakaMswati، أي أهـــل الملك Mswati، فما لبـــث الأوروبيون أن حرّفوا هذا الاسم إلى Swazi، ومن ثَمّ إلى Swazi-land، وذلـــك ما دعا الملـــك الحالي (عـــام ٢٠١٨م) إلى تغيير اســـم المملكة والعودة به إلى الاســـم الأصلي: Eswatini، أي بلاد سواتي[١].

هذا؛ وقد يحدُثُ نوعٌ طريفٌ من التشـــويه، وذلـــك حين يُبقي المســـتعمرون على الاســـم المحلـــي، مع إضافـــة صفة معيّنـــة، فيحدُث نوعٌ مـــن التكـــرار الممنوع، مثـــلاً: Mount Kilimanjaro، هـــو بمثابـــة قولنا: جبل جبل انْجارو، حيث إن Kilima باللغة الســـواحيلية يعني: جبل، ومثله قولهم Emperor Mansa Musa، فكلمة «مانْسا» تعني ملك بلغة ماندينغ، والأصْوَب طرح كلمة الإمبراطور أو «مانسا».

بالإضافة إلى ذلك؛ فإن الكتابات الفرنسية خاصةً تعطي لنفســـها حق التصرف الواسع في جميع الأســـماء الإفريقيـــة بإخضاعها لقواعد النحو والإملاء وتصريف الأســـماء الفرنســـية Orthographe، فتضيف إليها لواصق التأنيث Guinée والجمـــع Bantou:Bantoux، والنســـبة Beninois، وكأنها ألفاظٌ فرنســـية صِرْفَـــة، مع أن لكلّ مجموعـــة لغوية بإفريقيا- تقريبـــاً- عناصر لغوية للإشـــارة إلـــى المفرد والجمع، مثلاً: Mosi: Moaga.

٢- تحريف دلالي:

نتيجةً للتشـــويه الواقع في تسجيل الأسماء الإفريقية، وطول العهد، فـــإن معاني كثيرٍ منها قد ضاعت؛ حيث يتعذر الآن التحقق من الأصل الاشـــتقاقي لتلك الأســـماء؛ لذلك لا نَزال نجد في الدراسات المعاصرة جدلاً مطوّلاً حول تلك الأسماء.

نجد أمثلةً كثيـــرةً لهذا التحريـــف عند الباحث راميلي لأسماء المُدُن بجنوب إفريقيا وما أحدَثَ ذلك من انزياح دلالي، منها مثلاً: بلدة على قمة جبل واسمها Bheka، أي: انظُـــرْ، تطلّع؛ لكـــن الهجاء الإنجليزي بدون صوت /h/ قد حوّل المعنى إلى: اطْرَحْ، أو: ألْقِ به! ولا شـــك أن ذلك قد أزال عن هذه البلدة الظلال الجمالية المصاحبة لمعنى: انظُـــرْ، تطلّع، إلى معنى

(١) R. T. Zwinoira, «some toponyms and ethnonyms of Swaziland», in: African Ethnonyms and Toponymys, p.24.

قد يُتشـاءَمُ منه[١]. والهجاء الرسـمي لبلدة بمنطقة أسانتي بغانا هو Awudua، والأصل: Awo-dua، مع إمالة للمقطع الأول، ويعني حرفيّاً: شجرة الطفل؛ أي: شجرة الخصوبة؛ لوجود شجرة بتلك البلدة يُعالج بها عُقر النسـاء. أما الهجاءُ الإنجليزي الرسمي فقد حوّل المعنى إلى: شجرة الموت[٢]..!

أحياناً؛ يتمخض التحريف عن دلالة فارغة، كمـا الحال فـي صحـراء Kalahari جنوبي إفريقيـا، وهو تحريفٌ للأصـل Kgalahadi بلغة سـوانا، ومعناه: أرض العطش القاتل. أما «كلاهاري»، فلا معنى له.

يتلخـص القول هنا؛ بأن كل اسـم جغرافي بإفريقيـا- تقريبـاً- لـه هجـاءان: محلـي endonym، وهـو الشـكل المحلي للاسـم الجغرافـي باللغة الأصليـة للمجتمع، وأجنبي exonym، وهو الاسـم والهجاء المعطى لبقعةٍ جغرافية من لدُن المسـتعمر، وأن ذلك قد أدى إلى تحريفٍ دلاليٍّ لمعظم الأسـماء الجغرافية الإفريقيـة، وتلـك نتيجةٌ هادفـة لقطع الجيل الجديد عن حقائق الماضي وتاريخ الأجداد[٣].

تجـدر الإشـارةُ إلـى أن تحريف الاسـم الجغرافي الأجنبي أمرٌ طبيعي، يمارسـه جميع الشعوب بعفوية غير واعية؛ لأسبابٍ كثيرة، منها:

١- اختلافُ اللغات:

ففـي كلّ لغةٍ أصوات قد لا تتوفر في بعض اللغات.

٢- تعدد المُسجِّلين والمصادر:

وينتـج عن ذلك شـيوع هجـاءات متعددة متزامنة لاسم الموضع الواحد.

٣- الوهم وسوء الفهم:

نظراً لضعف التواصل اللغوي بين المحليين والأجانب في كثير من البلاد، فإن هذا الضعف يؤدي إلى تحريف بعض الأسـماء، ومن طرائف ما يُذكر هنا أن مسـؤول الضرائب الاستعماري سـأل مُرافقه الترجمان في موضعٍ بالنيجر عن قرية رآها، ولسـوء الفهم؛ ردّ الترجمان بقوله: babou moutane، أي: لا أحد هناك. وهكذا أضيف اسم قريةٍ جديدة في سجل الضرائب[٤].

٤- الإداريون المحليون في الدوائر الحكومية:

يعود تشـويه بعض الأسماء في إفريقيا إلى الإداريين الرسـميين، فغالبيـة أولئك لم يتلقوا تدريباً لسانيّاً في التسجيل الصحيح للأصوات. لذلك من المألوف اليوم وجود أفرادٍ في إفريقيا باسم ذي هجاءٍ مغلوط في شهادة ميلادهم، ولا يُعـرف ذلك إلا في فترةٍ متأخرة؛ لكون كثيرٍ من الآباء أميّين[٥].

تلك أسبابٌ طبيعية لتحريف الأسماء الأصلية، فلو بقي تعامُل المسـتعمرين للأسماء الإفريقية فـي هذا الإطار؛ لكان لهـم العذر، لكن ما صدر منهم كان- ابتداءً- خارج هذه الأسباب المقبولة.

المحـور الثـالـث: إعـادة تسمية الأمكنة الجغرافية.. بوصفها وجهاً لإزالة آثار الاستعمار:

لقـد ارتبطت إعـادةُ تسـمية الأمكنة في الغالـب بالتحولات السياسـية والفكرية؛ ذلك أن لكلّ اسـم جغرافي سبباً لوجوده حين وضَعَهُ الواضع، وحينٍ يحدث تحوّلٌ لهذا السـبب فإن الاسـم يتغيّر في الغالب، لذلك حين «استقلت» الدول الإفريقية؛ هرع الكثيرُ منها إلى استبدال

(١) Siphokazi, Op. Cit., p.4.

(٢) Patricia B., et al. 2015. «Anglicized place names in Ghana», EIS (2), 19-23 (20).

(٣) Oyeronke O. & Hewan G. (ed). 2023. Naming Africans, Palgrave, p.154.

(٤) UNESCO, African Toponymy, p.71.

(٥) Gogbeu, l'Onomastique Dan, Op. Cit., p.285.

الأسماء الكولونيالية للمواضع؛ تعبيراً عن رغبتها في إزالة آثار الاستعمار.

ففي فولتا العليا مثلاً، حين قامت حركة توماس سنكارا الثورية في التسعينيات من القرن الماضي، تغيّر اسم البلاد إلى «بوركينا فاسو» (أرض الرجال الشرفاء)، وشاع إطلاق أسماء رموز الثورات حول العالَم على الشوارع والأحياء، مثل: شارع شي جيفارا، وشارع نيلسون مانديلا. وفي جنوب إفريقيا، بعد انقشاع نظام التفرقة العنصرية (أبارْتهيد)، وُجِد نشاطٌ وطني وشعبي مكثف لاستبدال كثيرٍ من أسماء المدن والشوارع والجبال والأنهار، وحُطّمت نُصبٌ تذكارية كثيرة[١]، وقد وصف الباحث ماشابا هذا الإجراء بأنه وسيلةٌ للانتقام من الاستعمار ونظام الفصل العنصري[٢].

ولعل هذه الرغبة في إعادة تسمية المواضع الإفريقية يمكن رصدها بوضوح في أسماء الدول الإفريقية ومُدُنها؛ إذ حدث تغيير الكثير منها، ويكفي هنا عرض عشرةٍ منها على سبيل التمثيل:

جدول: الاسم القديم والجديد لبعض الدول الإفريقية:

الاسم الاستعماري	الاسم الجديد	سنة التغيير
Swazilan مجموعة إثنية	Eswatini مجموعة إثنية	٢٠١٨
Kongo. Belgian Congo. Zaire. Congo تغير سبع مرات	Rep. Democratique Congo	١٩٩٧
South-West Africa	Namibia من صحراء ناميبْ	١٩٨٦
Rodhesia اسم المستعمر الإنجليزي Cecil J. Rhodes	Zimbabwe مملكة قديمة	١٩٨٠
Dahomey مملكة فُونْ القديمة	Benin جزء من خليج بنين	١٩٧٥
Basotholand نسبة لإثنية سوتو	Lesotho	١٩٦٦
North Rodhesia	Zambia من نهر Zambezi	١٩٦٤
Nyasaland بلاد إثنية نياسا	Malawi من نهر Maravi	١٩٦٣
Soudan Francais	Mali مملكة إسلامية قديمة	١٩٦٠
Gold Coast لوفرة الذهب التبر بها	Ghana مملكة إسلامية قديمة	١٩٥٧

هذا؛ وقد تفاوتَت الدول الإفريقية في تغيير الأسماء الاستعمارية، فبينما احتفظ بعضها بالاسم الاستعماري، مثل: كوت ديفوار، ليبيريا، سيراليون، وكابو فيردي (الرأس الأخضر)، وجنوب وسط إفريقيا، وهي في الغالب المستعمرات الفرنسية؛ نجد نشاط تغيير الأسماء شبه شاملٍ في دُولٍ أخرى، منها: كونغو الديمقراطية التي كانت معظم معالمها الحضرية مسماةً باسم ملك بلجيكا وأفراد أسرته: العاصمة Leopoldville غُيِّر إلى Kinshasa، ومدينة Elisabethville إلى Lumumbashi[٣].

حدَث ذلك إثر ثورة الرئيس موبوتو (١٩٦٥م)، ورفعه لشعار recours a l'autenticite، أي: العودة إلى الأصول، فبدأ بنفسه بتغيير اسمه الأوروبي الكاثوليكي إلى «موبوتو سيسي سيكو»، وأتْبع ذلك بتغيير سائر الأسماء الاستعمارية[٤].

من الدول التي شهدت تغييراً شاملاً للأسماء: روديسيا، تغيّر اسمُها إلى زيمبابوي، وعاصمتها Harare، وكانت تُدعَى Salsbury، وبها أيضاً وُجِدت حركةٌ نشطة لتصحيح الأسماء المحلية

(١) Rammile, «A place called home», p.3.

(٢) Themba Moyo. 2012. «Naming practices in colonial and post-colonial Malawi», Inkanyiso, Jnl. Hum & Soc. Sci. 4(1), p.14.

(٣) Johan Moll. 2009. Colonial names of Countries in Africa before and after uhuru, JH, vol.49 (2), p.311.

(٤) Liora B. Place Names, Op. Cit., p.187.

المحرَّفة؛ لتُطابِق النطق الأصلي بلغة شونا.

تجدر الإشارة إلى أن الواقع الجيوسياسي الراهن بإفريقيا، وتوتر العلاقات بين بعض الدول والقوى الاستعمارية (فرنسا خاصة)، يؤشر لقيام حركات إزالة الاستعمار على مستوياتٍ عدة، بما فيها تغيير الأسماء الجغرافية الموروثة من الاستعمار. ولعل السنغال، التي سبقت الإشارة إلى كثرة الاسم الاستعماري فيها، تشهد موجةَ إعادة تسمية لكثيرٍ من الأسماء الاستعمارية؛ إذ قد سبق لرئيس وزرائها الجديد السيد عثمان سونْكو تزعُّم حملة تغيير بعضٍ منها في فترة رئاسته لبلدية زيغنْشورْ بمنطقة كازامانْس (عام ٢٠١٢م)، منها: شارع الجنرال شارلْ ديغول، استُبدل بشارع السلام Rue de la paix، وصرح سونْكو آنذاك بقوله: «إن احتفاظنا ببعض الأسماء على الرغم من مرور ستة عقود على استقلالنا؛ لَهُو استفزازٌ لكرامتنا الوطنية»[(١)].

الإسلام والاسم الجغرافي بإفريقيا:

للإسلام تأثيرٌ عميق في التسمية الجغرافية بإفريقيا، وذلك لعمق التأثير الإسلامي في المجتمعات الإفريقية، فقد وُجِدت مواضع وبلداتٌ كثيرةٌ منذ عصر الممالك العظمى ذات الصِّبغة الإسلامية بغرب إفريقيا وشرقها، مثل: غانة، ومالي، وصونغاي، فيُذكر أن «جيني» من (جنة)، وعُرفت بلدة بـ«تَوْتَل» (توْتل الله) أي بلد الله، وأخرى «تادْمَكة» لأنها أشبه بلاد الله بمكة. وشاع إطلاقُ أسماء إسلامية على المدن في العصور المتأخرة، منها: إمارة «دين» (إسلام)، وعاصمتها «حَمْد الله».

وللنظر في هذا الموضوع؛ فقد راجعنا إحصاءً للمدن والقرى أعدته مديرية الإحصاءات بالسنغال (١٩٧٢م)، وآخر من إعداد المعهد الوطني للإحصاء INSTAT في مالي (٢٠١٣م)؛ فوجدنا بكلٍّ منهما أكثر من مائة اسم جغرافي إسلامي، وهي تتمحور حول عدة أسماء: (مدينة، حمد الله، دار السلام، مصر، بغداد، طوبى، جنة)، وهذا الشيوع للأسماء المذكورة واردٌ في دُوَل المنطقة، مثل غينيا، وغامبيا، وغانا (في أكرا مثلاً: حي: نعمة الله، وحي: مدينة، ودار السلام).

أحياناً؛ يكون الاسم بلغة محلية؛ لكن بصبغةٍ إسلامية واضحة، مثل Alahina رحمة الله، و Sabou Allah، أي: بفضل الله، في مالي. ومنها Heremakono: بانتظار الخير، وهو اسمٌ شائعٌ جدّاً في جميع أرجاء غرب إفريقيا؛ لارتباطه بأكبر حركة مقاومة جهادية ضد الاستعمار الفرنسيِّ بغرب إفريقيا بقيادة الإمام ساموري توري (ت١٩٠٠م)، ويُطلق على المدن، والقرى، والأحياء والدوائر، منها بلدة شمالي سيراليون، وأخرى في حدودها الشرقية مع غينيا، وأخرى في غربيّها، وفي محافظة سيغو بمالي، وهو حي بالعاصمة بماكو، وبلدة حدودية بين مالي وبوركينا، وفي غينيا أكثر من خمس بلدات بهذا الاسم، وبمحافظة ديفو جنوبَي كوت ديفوار مدينة بهذا الاسم.

هذا؛ وقد نبّه الكاتب باديكو على موجة تغييرٍ لأسماء كثيرٍ من المدن والقرى والدوائر والبلديات بمنطقة فوتا بغينيا خاصة؛ باختيار أسماء إسلامية. فمن القرى التي استُبدِلَتْ بـ«مدينة»: Madina Maci لقرية Pelel Diadia بدائرة ماسي، وMadina Bandani لقرية Woro Banire بمديرية مالي، و Madina Para لقرية Wolonto. وقُرى أخرى سُمِّيت بـ«حمد الله»، منها: Petel Djiga بمديرية Soumbalako، ودائرة Bougouhoye بمدينة مَامو، وأخرى تحولت إلى «دار السلام»، منها: دائرة Bhoudou Kouyé بمدينة مَامو، وبلدة MamaFoula

(١) GEO. «Sйnйgal: pour la «dignitй nationale», Ziguinchor rebaptise des rues aux noms fran-.sais», 21/02/2022

أصبحت «نصر الله»[1].

ولا شك أن هذا التغيير نتيجةٌ للحرص المتزايد في المجتمع المسلم المعاصر بغرب إفريقيا واعتزازه بالإسلام، وأنه منسجمٌ مع السياق الاجتماعي التاريخي الراهن للمسلمين، وتلك ظاهرةٌ جديرة بدراسةٍ مستفيضة.

خاتمة:

من كلّ ما سبق؛ يتبين أن الاسم الجغرافي عنصرٌ جوهريٌّ في تكوين كل شعب؛ لأنه ليس مجرد علامة لموقع مادي بحت، وإنما هو بنية اجتماعية متشابكة حاملةً لرؤى عميقة للمجتمع، وهو مُسْتَوْدَعٌ أمينٌ للتاريخ والثقافة. عليه؛ فإن أي مساسٍ أجنبي بهذا المسْتَوْدَع، يُعَدّ مساساً خطيراً بهوية الشعب.

إن هذا بالذات هو ما وقع للاسم الجغرافي بإفريقيا، بإخضاعه لتشويه مُمَنْهج مكثف في ظل الهجمة الاستعمارية على القارة، وتمثّل ذلك في محو الأسماء الأصلية واستبدالها بأسماء أوروبية، وفي التحريف الهجائي لمعظمها. كل ذلك بهدف طبع بصمةٍ أوروبية زائفة على القارة، وخدمة الهدف الاستعماري.

هذا؛ وقد وُجِدت ردّات فعلٍ معاكسة لتشويه الاسم الجغرافي بإفريقيا في إطار حركات إزالة الاستعمار؛ فغُيِّر الكثيرُ من الأسماء الاستعمارية، وأعيدت إلى أصولها، وصُحِّح ما خضع منها للتحريف الهجائي، ولا تزال الجهود الشعبية خاصةً قائمةً في أرجاء إفريقيا لمواصلة تأصيل الأسماء الإفريقية. غير أن تلك الجهود- على الرغم من حماسة أصحابها وحسن نياتهم- لا تزال محدودةً بمقابل التجذر الاستعماري في إفريقيا، وعجز الحكومات الرسمية؛ لأن تأصيل الأسماء الجغرافية إنما هو حَجرةٌ في تقويض صرحٍ جبارٍ من المخلفات الاستعمارية التي ينبغي إزالتها، كالأعلام والأناشيد الوطنية، والعملات الاستعمارية، واللغة... فالتغيير يظل جزئيّاً وشكليّاً إذا ظلت اللغة الاستعمارية هي المعتمدة في كثيرٍ من تلك الأسماء. إن تغيير اسم شارع من Avenue du capitaine Javelier، وهو من رموز القمع الاستعماري العسكري، إلى Avenue de la paix أي: شارع السلام، قد لا يحمل هذا الاسم الجديد رسالةً قوية لأفراد الشعب السنغالي أو غيرهم. وكما نبّه عليه الباحث يوهان مولْ؛ فإن الأفارقة «لا يزالون رهين النظام الاقتصادي الأوروبي فحسب، وإنما هم رهين اللغات الأوروبية أيضاً»[2].

تجدر الإشارة إلى أن تحميل الاستعمار مسؤولية تشويه الأسماء الجغرافية إنما هو من باب التغليب، وإلا فإن للأفارقة أنفسهم حظّاً كبيراً في هذا الأمر؛ خاصةً على المستوى الرسمي، فجهود إزالة آثار الاستعمار تُواجَه برفضٍ قاطع من لدُن كثيرٍ من المسؤولين الحكوميين الأوصياء على الاستعمار. مثلاً: إن تغيير اسم شارع الكابتن جافلير المشار إليه آنفاً، وغيره من أسماء الشوارع الاستعمارية التي أقدَمَ السيد عثمان سونْكو على تغييرها بوصفه رئيس البلدية، قد وُوجِه بالرفض من لدُن المحكمة العليا بالسنغال.

أما على المستوى الفردي؛ فنجد أن هناك كثيراً من الناس ممن ينزعجون من مناداتهم بأسمائهم الإثنية، ويفضِّلون الاسم الأجنبي، كما ينظرون إلى مَن ينطق بأسماء المواضع على أصولها بأنه «رجعيٌّ».. وهنا تعود إشكالية الورقة الحالية أكثر خطورةً في بيان عمق التأثير الاستعماري الفكريّ في الشخصية الإفريقية ■

(١) Badicko Diallo, Guinňe: des villages du Fouta changent leurs noms authentiques pour des noms arabes, https://guineenews.org/

(٢) Johan Moll. 2009. «Colonial names of countries in Africa before and after uhuru», J. of the Humanities, 49(2), p.318.